الحمامات الشامية في العصر العباسي المتأخر

المدرس الدكتور عبد الكريم عز الدين صادق*

تاريخ قبول النشر ٢٠٠٦/٥/٢١

مستخلص البحث :

تؤدي الحمامات دوراً مهماً في الدراسات الاجتماعية التاريخية ، لانها تظهر عن جوانب متعددة من صيغ الحياة الاجتماعية للشعوب والمجتمعات بأعتبار ان هذه الحمامات مؤشر لبيان الرقي الانساني الباحث عن الاهتمام بالتنظيف والاعتناء بالصحة العامة باعتبارهما من روافد الحضارة الانسانية عبر التاريخ ، ولذلك جاء هذا البحث ليبين لنا صوراً من الحمامات الشامية في العصر العباسي المتأخر من حيث اهميتها وادائها وانواعها ، وسيظهر من خلال البحث ذلك الاهتمام الواضح من قبل الشاميين في تنمية وتطوير تلك الحمامات .

مقدمةالبحث..

تعد الدراسات التاريخية الاجتماعية معلماً من معالم الحضارة الانسانية ، حيث تظهر لنا صيغ العلاقات الاجتماعية وانماطها ، وسدى تأثيرها على حياة الناس اليومية ، وتعتبر الحمامات من المواضيع المهمة في هذا الجانب والذي يعكس الرقي والتقدم الاجتماعي للمجتمعات عبر التاريخ ، وهذه الدراسة تبحث عن حمامات بلاد الشام في العصر العباسي المتأخر حيث لا وجود اداري واضح ومباشر للخلافة العباسية في بغداد في هذه المنطقة وظهور القوى السياسية المتعددة فيها كالحمدانيين والزنكيين والايوبيين والمماليك ، فضلاً عن احتلال اجزاء واسعة من منطقة بلاد الشام من قبل الصليبيين ، وهذا مما اثر فعلاً على التركيبة الاجتماعية في تلك المراحل التاريخية .

أهمية الحمامات الشامية ...

اهتم الشاميون بالحمامات ، واعتبروها احدى الادوات الصحية والاجتماعية، وانعكاسا لرقيهم الحضاري والاجتماعي ، واصبحت تلبي حاجة العامة من الناس وكذلك غير العامة من سكان المدن ، ونلاحظ بان هذه الحمامات ، كانت بالقرب من المساجد[١] ، وذلك لاتمام عملية الوضوء ، والطهارة قبل اداء فريضة الصلاة، وتكون قريبة من القلاع والخانات والمدارس والبيمارستانات ايضا[٢] .

ويبدو ان الحمامات الرئيسة تكون في وسط المدينة والسوق ليتمكن الناس من الوصول اليها بسهولة ويسر[١]. وان تطور الحمامات الشامية في العصر العباسي المتأخر مرتبط بحالات الترف والبذخ التي شهدتها بعض العوائل والاسر الشامية في ذلك الوقت[٢]. وضمن اهتمام الشاميين بالمستوى الصحي والرقي به ، فأنهم عمدوا الى إنشاء بعض الحمامات في الينابيع المعدنية الحارة لغرض العلاج من الامراض ، ويذكر ابن بطوطة ذلك : "وبها الحمامات العجيبة ، بها بيتان احدهما للرجال والثاني للنساء ، ماؤها شديد الحرارة "[٣] ، على الرغم من ان عصره متأخر ، الا ان هذا الوصف يعطي انطباعاً تاريخياً عن تلك الحمامات .

وفي هذا الصدد يقول بنيامين التطيلي عن حمامات طبرية بانها "تنبجس من باطن الارض[٤]".

---

* قسم التاريخ – كلية التربية للبنات – جامعة بغداد.

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، مادة (الحمام) ، ترجمة ،ابراهيم زكي خورشيد وآخرون ، دار الشعب ، القاهرة ، جـ٨ ، ص٦٨ .

(٢) ابن شداد ، عز الدين ابو عبد الله محمد (ت ٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق دومينيك سورديل ، دمشق ، ١٩٥٣ ، ص٤٠ .

(١) دائرة المعارف الاسلامية ، المصدر السابق ، ج٨ ، ص٦٨ .

(٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ، المقدمة ، ط٤ ، دار احياء التراث العربي ، بدون سنة ، ص٣٧٧ .

(٣) تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار ،دار التراث العربي ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ص٥٨.

(٤) الرحلة ما بين اعوام(٥٦١-٥٩١هـ/١١٦٥-١١٩٣م) رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمة عزرا حداد ، ط١، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص١١١ .

ويسمونها اهل الشام بالحمة ، لانهم يرتادوها لمعالجة امراض الجرب والقروح والمفاصل[١] ، كما ان هذه الحمامات مفيدة صحياً لمعالجة الحكة والاعياء وترطب البدن وتجود الهضم ، وتنضج الزكام النزلات[٢].

ومن التقاليد الاجتماعية في تلك الحمامات الشامية في العصر العباسي المتأخر ، بأن تكون مكاناً لممارسة الافراح والمناسبات الاجتماعية ومنها الزواج ، فيستحم العروسين وسط الاغاني والدبكات المحلية ، ويتحدث ابن كثير الدمشقي بذلك عن زيارته الى حمص وحدوث السيل الذي اجتاح المدينة وسبب الكوارث والمصائب قائلاً :"انه غرق بسببه خلق ، ومن مات فيه مائتا امرأة بحمام الامير تنكز نائب الشام كن مجتمعات على عروس او عروسين[٣] ، وهذا يدل على حضور اعداد كبيرة من النساء في الحمامات عند مراسيم الزواج .

وتؤدي الحمامات دوراً اجتماعياً مهماً ، فهي فرصة لنساء الحي لملاقاة صديقاتهن وتبادل الاحاديث والاخبار[٤]، في ظل ظروف اجتماعية لاتسمح للمرأة بالخروج المفرط به خارج بيتها ، واذا ذهبت المرأة للحمام حملت معها افضل ثيابها وحليها لترتديها بعد الاستحمام للمفاخرة بذلك امام النساء الاخريات[٥].

وكانت المرأة تذهب الى الحمام بعد الولادة وانتهاء فترة النفاس ،[٦] ، ويبدو ان النساء اكثر من الرجال اقبالاً على حمامات بلاد الشام[٧].

ويستفاد من الحمامات لاختيار العروسة ، حيث يذهبن الخطابات للتعرف على النساء لاختيار العروس ضمن المواصفات المطلوبة[٨] ، ويكون موقعاً للاحتفال عند شفاء المرضى من الامراض ومراسيم دخوله للحمام وغسله فيه دلالة على نهاية مرضه واتمام شفائه[٩] .

إدارة الحمامات الشامية

هنالك عدد من الاداريين الذين يتولون ادارة الحمامات الشامية ، وعرف هؤلاء الاداريون الامر او المعلم ، ووظيفتهم الاشراف على ادارة مستلزمات الحمامات ومراقبة الموظفين في الحمامات[١٠]،ويكون موقعه في الجزء الخارجي حيث يجلس على دكة ، يراقب الداخلين والخارجين وخدماتهم [١١]" .

وفي حمامات النساء فهنالك معلمة الحمام وتكون عادة زوجة صاحب الحمام ، وتقوم بخدمة النساء[١٢].

ومن الموظفين الاخرين في الحمام هو البلان ، ويكون مسؤولاً عن عملية الاستحمام ، والتدليك ، ومساعدة يطلق عليه تسمية الريس وفي حمامات النساء هنالك مايعرف بالبلانة[١٣].

وهنالك الحمامي الذي ينوب عن الامر او المعلم وهو المسؤول عن نظافة الحمام واستقبال الزائرين ومساعدتهم في خلع ملابسهم

---

(١) الادريسي ، ابو عبد الله محمد (ت٥٦٠هـ/١١٦٤م) ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، معهد الدراسات الشرقية ، روما ، ١٩٧٧ ، ج٤ ، ص٣٦٤ .

(٢) الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة تحقيق السيد الباز العريني ، ط٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص٨٦ .

(٣) ابن كثير ، ابو الفداء الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ، البداية و النهاية ، تحقيق احمد ابو ملحم واخرون ،ط٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ج١٤،ص١١٢ .

(٤) المقريزي ، تقي الدين احمد (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٣ ، ج٤،ص١٦٢ .

(٥) ابن طولون ، محمد الصالحي الدمشقي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م) ، مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ،١٩٦٢ ، ج١ ،ص٨٧ .

(٦) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٤،ص١٦٤ .

(٧) ابن الاخوة ، محمد بن محمد بن احمد القرشي (ت٧٢٩هـ/١٣٣٨م) ، معالم القربة في احكام الحسبة، تحقيق روبن ليوي ، كمبرج ، ١٩٣٧،ص١٥٧.

(٨) بهسي ، عفيف ، دمشق ، المكتبة العمومية ، دمشق ، ١٩٨١، ص١٠١ .

(٩) Goitein .SD,Amediterranean Society , University of California , ١٩٦٧ , Vol.٣ , p.p ٣٤٣ .

(١٠) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٣، ص٢٢٩.

(١١) ابن عبد الهادي ، جمال الدين يوسف (ت ٩٠٩هـ/١٥٠٣م) ، رسائل دمشقية ، حققها وقدم لها صلاح محمد ،ط١، دار ابن كثير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٨ ،ص٦٠ .

(١٢) كيال ، منير ، الحمامات الدمشقية ،١٩٨٦ ، ص٢٣٥ .

(١٣) ابن طولون ، مفاكهة الخلات ، ص٣٢.

والمحافظة عليها ، وتوفير المآزر التي تؤجر للزائرين وتكون عريضة واسعة تستر اجزاء الجسم [١] .

ويتواجد في الحمامات الشامية موظفين اخرين ومنهم الزبال الذي يقوم بنقل الاخشاب والحطب وروث الحيوانات الى موقد الحمام لاستخدامها كمحروقات[٢]،وهنالك القميني الذي يشعل النار لتسخين المياه في الحمام في فصل الشتاء البارد[٣] .

والطريقة التقليدية للاستحمام ، فتبدأ من دخول المستحم الى المشلح ، ويخلع ملابسه ، ويتجه الناطور بلف المستحم بفوط خاصة على اجزاء جسمه[٤]،ثم يقوم المستحم بلبس احذية خشبية للوقاية من حرارة ارض الحمام [٥] ، ثم يجلس في القاعة الخارجية او البرانية ليتجه بعد ذلك الى القاعة الداخلية لينتقل بعد ذلك الى المقصورة الداخلية ويجلس على كرسي خشبي قرب حوض الماء الساخن ويقوم المدلك بصب الماء عليه ، ثم يتمدد المستحم على ارضية الحمام ، حيث يقوم المدلك بتدليك جسمه[٦].

اما عائدية الحمامات الشامية فأغلبها يعود الى السلاطين، حيث يقومون بوقفها على بعض المؤسسات الدينية او التعليمية او غيرها[٧] ، وقد بنى السلطان الظاهر بيبرس حماما على باب القلعة بدمشق وبنى نائب مدينة دمشق المدعو (عز الدين الحموي) حماما عرف بالحموي[٨].

وتختلف اثمان هذه الحمامات من حيث سعتها وصفاتها ، فهنالك "حمام بمائة الف درهم ، وثان بعشرة الاف درهم ، وثالث بستة الاف درهم[٩]" .

وتذكر المصادر التاريخية بان الدولة تستوفي الاموال من هذه الحمامات كضريبة لها ، وهذا يظهر المردود المالي الجيد [١٠] الذي ترفده حمامات بلاد الشام الى اصحابها .

أنواع الحمامات الشامية...

هنالك نوعان من الحمامات الشامية ، وهي الخاصة والعامة ، والحمامات الخاصة تؤسسها العوائل الغنية ، وتتصف تلك الحمامات بالرقي والنظافة[١١] ، ويتم ايصال هذه الحمامات بالانهار المتفرقة والكثيرة في بلاد الشام ، فمثلا نهر بردى يمر في مدينة دمشق ويتفرع الى فروع عديدة ليصل الى احياء المدينة المختلفة[١٢]، وكذلك فان نهر العاصي يمر بعدة مدن شامية[١٣]، وان هذه الانهر لها اهمية خاصة في عمل الحمامات حيث يجلب من الانهر الماء الخاص بالاغتسال ، ويتم طرح المياه القذرة الى النهر مرة اخرى .

اما الحمامات العامة فهي متخصصة للرجال او النساء وفي بعض الاحيان يستخدم الحمام الشامي لسكانها في فترتين الاولى للنساء و الثانية للرجال[١٤] .

وعملوا على رصف ارضيتها بالبلاط وتزيينها بالزخارف ذات الالوان الجميلة[١٥] ، ومن اقسام الحمام هو البراني او المشلح او المسلخ الذي يعتمد على اربع قناطر من الحجارة وعليه قبة معقودة من الطوب والاجر ، ويحتوي على ايوانين ومقصورتين معقودتين بالطين والاجر ، وفي منتصف المسلخ توجد بركة للماء البارد ، والبيت البارد يقع على يمين الدهليز الموصل من المسلخ الى بيت التسخين ، ومن الدهليز يمكن الوصول الى الوسطاني[١٦].

ويقوم الزائر الى الحمام بخلع ملابسه فيها ، وهي مغلقة حتى لاتسمح بدخول هواء بارد اليها ، كما ان الباب الذي يوصل اليها لايفتح

---

[١] ايكوشار ، ولوكور ، ميشيل ولكور ، حمامات دمشق ، ترجمة ممدوح الزركلي ، ونزيه الكواكبي ، دمشق، ١٩٨٥ ، ج١،ص٤٥ .

[٢] م.ن.ج١،ص(٢٣٦ – ٢٣٧) .

[٣] م.ن،ج١،ص١٥٦.

[٤] م.ن.ج١،ص٤٥.

[٥] ايكوشارولوكور ، حمامات دمشق ، ج١،ص٤٥..

[٦] م.ن،ج١،ص٤٦.

[٧] م.ن،ج٨،ص٦٨.

[٨] العسلي ، كامل ، معاهدة العلم في بيت المقدس ، عمان ، ١٩٨١ ، ص١٧١ .

[٩] ابن تغري بردي ، ابو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ج٢،ص(١٥٤ – ١٥٨) .

[١٠] ينظر : المقريزي ، السلوك ، ج٤،ص١٥٦ .

[١١] ابن شداد ، الاعلاق الخطيرة ، ج١ ، ص(١٣٢-١٣٣) .

[١٢] كيال ، منير ، الحمامات الدمشقية ، ص٢١٥.

[١٣] ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تقديم عبد الله محمد الدرويش ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص١٤١

[١٤] ايكو شار ، ولوكور ، حمامات دمشق ، ج١ ، ص٢٠ .

[١٥] العلبي ، اكرم حسن ، دمشق بين عصر المماليك و العثمانيين ، دمشق ، ١٩٨٢ ، ص١٢١ .

[١٦] ابن بسام ، احمد بن احمد (ت٨٨٤هـ/١٤٧٤م) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، دار المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨ ، ص(٦٧ – ٧٠).

عليها مباشرة ، وانما يأتي بشكل ملتو حتى لاتتسرب حرارة المكان الى الخارج[١] .

وهنالك مقاعد لاستراحة الزائرين الى الحمامات ، وارضية مفروشة ببسط ذات الوان متعددة ويجلس على جانبي المدخل امر الحمام حيث يرحب بهم ، ويأخذ منهم الأجرة ، وهنالك بالقرب منهم مناشف الحمام ، ويقوم الزائرون بايداع ممتلكاتهم الشخصية الى امر الحمام للمحافظة عليها [٢].

وهنالك الحمام الوسطاني ، ويتكون من قسمين ، وهو الوسطاني الخارجي ويستخدم شتاءا ويكون مهيئا لكبار السن[٣] ، اما الوسطاني الداخلي فيستخدم للاستحمام صيفا[٤] .

وهنالك قاعة تسمى القميم وتكون من الخزانة والموقد ومسكن القميم ، والخزانة هي غرفة لخزن المياه ، وتكون هذه الغرفة مرتفعة عن بقية غرف الحمام الاخرى لكي لايسمح لخروج البخار منها ، ويتم وصول البخار الى القاعة الرئيسة عبر فتحات خاصة من هذه الغرفة[٥] ، ويتم تسخين الماء عبر خزانات نحاسية من خلال الموقد،ويتم تسخين الماء الى درجة معينة[٦].

ويتم تسخين الموقد من خلال اشعال النار تحته ، ويستخدم في ذلك روث الحيوانات والحطب[٧].

قائمة المصادر والمراجع ..

المصادر العربية ...

١. ابن الاخوة – محمد بن محمد بن احمد القرشي (ت ٧٢٩هـ/١٣٣٨م) ، معالم القربة في احكام الحسبة ، تحقيق روبن ليوي – كمبرج – ١٩٣٧.

٢. الادريسي ، ابو عبد الله محمد (ت٦٥٠هـ/١١٦٤م) ، نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، معهد الدراسات الشرقية ، روما ، ١٩٧٧.

٣. ابن بسام ، احمد بن احمد (ت٨٨٤هـ/١٤٧٤م) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، دار المعارف ، بغداد ، ١٩٦٨ .

٤. ابن بطوطة ، ابو عبد الله محمد بن ابراهيم (ت٧٧٩هـ / ١٣٧٧م) ، تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار (رحلة ابن بطوطة) ، دار التراث العربي ، بيروت ، ١٩٦٨.

٥. ابن تغري بردي ، ابو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/١٤٧٠م) ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

٦. ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/١٤٠٦م) ، المقدمة ، ط٤،دار احياء التراث العربي ، بدون سنة .

٧. ابن الشحنة ، ابو الفضل محمد (ت٨٩٠هـ / ١٤٨٥م) ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب ، تقديم عبد الله محمد الدرويش ، دار الكتاب العربي ، دمشق ، ١٩٨٤ .

٨. ابن شداد عز الدين ابو عبد الله محمد بن علي (ت٦٨٤هـ/١٢٨٥م) ، الاعلاق الخطيرة في ذكر امراء الشام والجزيرة ، تحقيق دومينيك سورديك ، دمشق ، ١٩٥٣ .

٩. الشيزري ، عبد الرحمن بن نصر (ت٥٨٩هـ/١١٩٣م) ، نهاية الرتبة في طلب الحسبة ، تحقيق السيد الباز العريني ، ط٢ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٦ .

١٠. ابن طولون ، محمد الصالحي الدمشقي (ت٩٥٣هـ/١٥٤٦م) ، مفاكهة الخلات في حوادث الزمان ، تحقيق محمد مصطفى ، دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢ .

١١. ابن عبد الهادي ، جمال الدين يوسف (ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م) ، رسائل دمشقية ، حققها وقدم لها صلاح محمد ، ط١ ، دار ابن كثير للطباعة والنشر ، بيروت ، ١٩٨٨ .

١٢. ابن كثير ، ابو الفداء الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) ، البداية والنهاية ، تحقيق احمد ابو ملحم واخرون ، ط٣،دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ .

١٣. المقريزي ، تقي الدين احمد (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) ،السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

المراجع العربية ...

١. بهسي ، عفيف ، دمشق ، المكتبة العمومية ، دمشق ،١٩٨٦ .

٢. العسلي ، كامل ، معاهد العلم في بيت المقدس ، عمان ، ١٩٨١ .

---

[١] كيال ، الحمامات ، ص٢١٧ .

[٢] ايكوشار ، ولوكور ، حمامات دمشق ، ج١،ص٢٣ .

[٣] كيال ، الحمامات ، ص٢٢١ .

[٤] ايكورشار ، ولوكور ، المصدر السابق ، ج١ ، ص٢٨ .

[٥] كيال ، الحمامات ، ص٢٢٧ .

[٦] ايكورشار ، ولوكور ، المصدر السابق ، ج١، ص٢٩ .

[٧] ايكورشار ، ولوكور ، المصدر السابق ، ج١،ص٣١.

٣. العلبي ،اكرم حسن ، دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين ، دمشق ، ١٩٨٢.
٤. كيال ، منير ، الحمامات الدمشقية ، ١٩٨٦ .

المراجع الاجنبية المعربة ..
١. دائرة المعارف الاسلامية ،ترجمة ابراهيم زكي خورشيد واخرون ، دار الشعب ، القاهرة .
٢. رحلة بنيامين التطيلي ، ترجمة عزرا حداد ، ط١، المطبعة الشرقية ، بغداد ، ١٩٤٥ .
٣. ايكوشار ، ولوكور ،ميشيل لكور ،حمامات دمشق ، ترجمة ممدوح الزركلي، ونزيه الكواكبي ،دمشق ، ١٩٨٥ .

المراجع الاجنبية ..
1. Goitein ,SD,Amediterranean Society , University of California , 1967 .

AL-Shaam bathrooms in the later Abbasyat Ages

Dr.A.Kareem AL-Aaragy
History Dept. – The College of Education for women
Baghdad University

Abstract:

The research shows that the AL-Shaam bathrooms in the later abbasynt ages, and this study had relation ship with Social – historical Studies in addition that this study belong with civilization life in that time.

The reseach shows the importence, Staff, Kinds of these bathrooms.